قراءة في فن البديعيات في النص الشعري المملوكي

Reading in the art of Budaiyat in the Mamluk poetic text

د. العايش سعدوني

قسم اللغة والأدب العربي، جامعة 8 ماي 1945 قالمة (الجزائر)
قسم اللغة والأدب العربي جامعة باتنة1 (الجزائر)
Saadouni.laiche@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2019/11/17 تاريخ القبول: 2020/04/12

ملخص المقال:

يتناول هذا المقال ظاهرة التشكيل في النص الشعري المملوكي، صوره وتمظهراته، من خلال فن البديعيات الذي استحدثه شعراء وأدباء هذه الفترة استجابة لروح العصر، الذي شهد انتكاسة لم يجد معها الشاعر العربي متنفسا إلا في لغته ودينه، ومن ثم كان مدح الرسول- صلى الله عليه وسلم- وكانت المولديات، التي من رحمها ولد فن البديعيات، محتذيا بردة البوصيري الشهيرة.

وقد ظهر في وشاح بديعي عبر عن الاضطراب والقلق الذي كان يعيشه الشاعر، وأصبح هم الكثير من الشعراء إظهار تورية أو طباق أو مقابلة، أو جناس أو براعة استهلال أو تضمين، أوتفريع، أو نحو ذلك.

الكلمات المفتاحية: التشكيل في الشعري المملوكي، المديح النبوي، فن البديعيات.

Abstract:

This article deals with the phenomenon of artistic formation in the poetic text of the Mamluk era, its images and manifestations, through the art of Budaiyat developed by poets and writers of this period in response to the spirit of that times, which witnessed a setback with which Arab poets did not find an outlet, except in their language and religion. Therefore, praising the Prophet (PBUH) and Mouloudiat (a sort of religious parties and gatherings), from which the art of Budaiyat was born, following the famous poem “El Borda” of Boussiri, and appeared in a Badi'i way expressing the worry and anxiety experienced by the poet, and many poets’ concern was to show puns, anagrams or initiation ingenuity, embedding, branching, or so.

Keywords: composition in the poetic text؛ of the Mamluk era; Prophet’s praise, art of Budaiyat.

1- مقدمة

رغم التسميات التي وسمت بها فتره الحكم المملوكي والعثماني (656ه \ 1258م- 1213ه \1798م)، والتي تدل في مجملها على الضعف والانحطاط، فقد شهدت هذه الفترة حركة علمية واسعة، وازدهارا ثقافيا في شتى المجالات، ساعدت على تعويض الخسارة التي لحقت بالأمة العربية والإسلامية على يد المغول، حيث قضى (هولاكو) وجيوشه على كل معاقل الحضارة، وألقى بالكتب في مياه نهر دجلة حتى تغير لون المياه لكثرة ما ألقي فيه، وقيل إنه: " أقام بكتب العلم ثلاثة جسور على نهر دجلة". [1]

إن هذا البحث بقدر ما يسعى للكشف عن تجليات الإبداع وأهم مظاهر التشكيل الفني في النص الشعري المملوكي، من خلال فن البديعيات الذي استحدثه شعراء هذه الفترة تماشيا مع روح العصر العصر، فإنه يحاول دفع شبهة الضعف والانحطاط التي لحقت هذه الفترة، فاستحضار مثل هذه النصوص التراثية واستنطاقها وتحليلها والكشف عن مميزاتها، من شأنه إماطة بعض اللبس عن هذه المسألة، أو على أقل تقدير لفت الانتباه إليها.

2- الأدب في العصر المملوكي بين الظلم والإنصاف

اهتم المماليك اهتماما كبيرا بالعلم والعلماء فأكثروا من بناء دور العلم من مساجد ومدارس، وأظهروا اهتماما بالغا بالعلم، حتى صارت بلاد الشام ومصر تنشر أنوار المعرفة على العالم كله، في وقت كان العالم الغربي كله يرزح تحت وطأة الجهل.[2]

وعلى الرغم من انصراف بعض السلاطين والأمراء عن الشعر والشعراء، بحكم أنهم أعاجم لا يفهمون العربية ولا يتذوقونها- كما يُروج لذلك- وهذا أمر مردود إذ لا يعقل أن يكونوا كذلك، وقد جعلوها اللغة الرسمية لدولتهم، ثم إن اهتمامهم بالدين الإسلامي يفرض عليهم الاهتمام بلغة هذا الدين، فقد استمر نهر الشعر العربي دفّاقا، وحافظ الشعر على مكانته في نفوس الناس، وكثر الشعراء ولم يتوقف موكب الشعر ولم ينقطع، بل ظل يحتفظ بمكانته، وظل الناس يكرمون الشعراء ويقدرونهم، ومن هؤلاء الشعراء على سبيل المثال لا الحصر: (ابن سناء الملك ت608 ه)، (الصاحب شرف الدين الأنصاري ت662 ه)، (التَّلعفري ت 675ه)، (العفيف التلمساني ت690 ه)، (شرف الدين البوصيري ت696ه)، (ابن دقيق العيد ت 702 ه)، (عمر بن الوردي ت749ه)، (صفي الدين الحلي ت 750 ه)، (جمال الدين بن نباتة ت768ه)، وغيرهم كثير؛ وعنيت كتب التاريخ والتراجم بالشعر والشعراء، أهمها: " وفيات الأعيان لابن خلكان"، "الوافي بالوفيات للصفدي"، " الدرر الكامنة في أعلام المائة الثامنة لابن حجر"، وغيرها، وطبعت

دواوين الكثير من شعراء هذه الفترة، كـ: (القاضي الفاضل)، (ابن سناء الملك)، (ابن النبيه)، (ابن مطروح)، (ابن الفارض)، (البوصيري)، (ابن نباتة)، وغيرهم.[3]

ولعل من الأسباب التي أدت إلى ازدهار العلوم وكثرة العلماء والشعراء والكتاب في هذا العصر:

- هجرة العلماء والأدباء إلى مصر والشام من شرق العالم الإسلامي هربا من زحف التتار على بغداد، ومن غربه هربا من جحافل الصليبيين.

- الاستقرار الأمني الذي شهدته مصر والشام في عصر المماليك.

- الاتجاه الديني السائد في البلاد، وكذا الانتصارات التي تحققت على أعداء الأمة العربية والإسلامية، ولذلك راج المديح الذي يمجد البطولات ويحرض على الجهاد في سبيل الله، وتغنى الشعراء ابتهاجا بتلك الانتصارات على التتار والصليبيين: فهذا الشاعر (شرف الدين الأنصاري)، على سبيل المثال تأخذه نشوة انتصار (القائد المملوكي سيف الدين قطز) على التتار في معركة (عين جالوت سنة 658 هـ)، يقول:[4]

رُعْتَ العِدَا فَضَمِنْتَ تَلَّ عُرُوشِها ولَقَيتَها فأخذت فلَّ جُيُوشِـها
فُقْتَ المُلُوكَ بِبَذْلِ مَـا تَحْوِيهِ إذْ ختَمَتْ خَزَائنَهَا عَلَى مَنْقُوشِـهَـا
وَطَوَيْتَ عَنْ مِصْرَ فَسِيحَ مَرَاحِلٍ مَا بَيْنَ بِرْكَتِهَا وَبَيْنَ عَرِيشِـهَـا
حَتَى حَفِظْتَ عَلَى العِبَادِ بِلَادَهَـا مِنْ رُومِهَا الأقصَى إلَى أُحبُوشِهَـا

3- التشكيل الفني في النص الشعري المملوكي

اتسع نطاق الشعر في هذا العصر اتساعا كبيرا، وتناول الشعراء جميع الأغراض التقليدية والمستحدثة، بل ما تركوا بابا منه إلا طرقوه ولا سبيلا إلا مشوا فيه، وصلت حد نقد الأوضاع الاجتماعية والسياسية، كقول شهاب الدين الأعرج مثلا في الأقباط والأتراك - فيما بعد- واستئثارهم بالرزق:[5]

وَكَيفَ يَرومُ الرِّزقَ فِي مِصْرَ عَاقِـلٌ وَمِنْ دُونِهِ الأتراكُ بالسَّيفِ وَالتُّرْسِ
وقَدْ جَمَعَتْهُ القِبْطُ مِن كُل وِجْهَةٍ لأنْفُسِهِمْ بِالرُّبعِ والثُّمنِ وَالخُمْسِ
فَلِلتُّركِ وَالسُّلطانِ ثُلْثُ خرَاجِـهِ وللِقبطِ نِصْفٌ وَالخَلَائِقُ فِي السُّدسِ

وبرعوا في التهنئة والتعزية والألغاز والأحاجي والحنين والشوق والعتاب والشكوى والفكاهة والمجون ونظم العلوم والفنون، والزهد والتصوف والنصيحة والمثل والحكمة، والقصص والتمثيل.[6] وتلاعبوا بأوزان الشعر وألفاظه ومعانيه، إلى الحد الذي صار الشاعر يشكل بيتا يُقرأ من اليمين ومن اليسار، وأكثروا من التأريخ بالشعر يؤرخون به قدوم والٍ أو مناسبة من المناسبات في آخر الشطر بالقصيدة، إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحساب الجمل، فتكون سنة الولاية أو سنة المناسبة.[7] ومن مظاهر التشكيل في النص الشعري في هذه الفترة :

1.3- اصطناع البديع: كان العصر المملوكي عصر تمويه وزخرف، فانعكس ذلك على أساليب الشعر وأوزانه، وأصبحت الألوان البديعية من أهم دعائمها استجابة لروح العصر، وأصبح هم الكثير من الشعراء إظهار تورية أو طباق أو مقابلة، أو جناس أو براعة استهلال أو تضمين، أو نحو ذلك، فمن براعة الاستهلال قول (ابن نباتة المصري المتوفى سنة 768هـ):[8]

فِي الرِّيقِ سُكرٌ وَفِي الأَصْدَاغِ تَجْعِيدُ هَذِي المُدامُ وَهَاتِيكَ العَنَاقِيدُ

ومن الجناس قول (ابن قلاقس المتوفى سنة 567هـ)، في وصف مغنٍ:[9]

لا أَشْـــربُ الرَّاحَ إلَا مَا بَينَ شَادٍ وَشَادِنْ
قُمْ يَا نَدِيمِي فَأَنْصِتْ واللَيْلَ داجٍ لِداجِنْ
طَاوِعْ عَلَى القَصْفِ وَالعَزْ فِ كُلَّ حَاسٍ مُحَاسِنْ

فالقطعة على هذا النمط من الجناس بين القافية والكلمة السابقة لها، فشادٍ أي مغنٍ تسبق كلمة شادنْ أي غزال، وكلمة داجٍ أي مظلم تسبق كلمة داجنْ أي مغنٍ، وكلمة حاسٍ أي للشراب تسبق كلمة مُحاسن.

وتتعانق التورية مع الجناس التام في قول (ابن قادوس المتوفى سنة 551هـ):[10]

لَامَ العَوَاذِلُ مُغْرَمًا فِي حُبِّ مُلْهِيَةٍ وَقَيْنَهْ
وَلَوْ أَنَّهُمْ رَأَيْنَ تَأْ ثِيرَ الغَرَامِ بِهِ وَقَيْنَـهْ

فالتورية والجناس في كلمة (وقينه) المكررة في نهاية البيتين: فالواو في الأولى عاطفة وفي الثانية من أصل الفعل (وقى)، وهي موضع التورية.

ومن التورية قول (ابن نباتة):[11]

وَضَعْتُ سِلَاحَ الصَّبْرِ عَنْهُ فَمَا لَهُ يُقَاتِلُ بِالأَلْحَاظِ مَنْ لَا يُقَاتِلُهْ
وَسَالَ عِذَارٌ حَوْلَ خَدَيْهِ جَائِرٌ عَلَى مُهْجَتِي فَلْيَتَقِ اللهَ سَائِلُهْ

ومن الاقتباس قول (محي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة 692هـ):[12]

إنْ كَانَتِ العُشَاقُ مِنْ أَشْواقِهِمْ جَعَلُوا النَّسيمَ إلى الحَبِيبِ رَسُولَا
فَأَنَا الذِي أتلُو لَهُمْ : "يَا لَيْتَـني كُنتُ اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاَ"

ولعل من أهم فنون الشعر الجديدة في هذا العصر والتي تعتبر وليدة العناية بالبديع، ظهور(فن البديعيات) والتي تصبح المقياس الدقيق لإبداع الشعراء، تتضمنها قصائد في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم)، والقصيدة البديعية يتضمن كل بيت منها لونا من البديع على الأقل، ويتضمن أحيانا اسم هذا اللون، والغالب أن موضوع القصيدة هو المديح النبوي، وقد كانت بردة البوصيري المشهورة مصدرا من مصادر الوحي لشعراء البديعيات."[13]

ومن أهم هذه القصائد بديعية (السيوطي ت911ه) المسماة (نظم البديع في مدح خير شفيع)، وكانت تعاصره (عائشة الباعونية المتوفاة سنة 922ه)، وقد جعلت بديعيتها في مائة وثلاثين بيتا، ومن شعراء هذا النوع (صفي الدين الحلي ت752ه) ومطلع بديعيته:[14]

إنْ جِئتَ سلْعًا فَسَلْ عنْ جِيرَةِ العِلَمِ وَاقْرَ السَّلاَمَ عَلَى عُرْبٍ بِذِي سَلَمِ[15]

2.3- المفهوم اللغوي للبديعيات

جاء في" المعجم الوسيط: "بدَع بَدعًا: أنشأه على غير مثال سابق، فهو بديع، وبَدُعَ بَدَاعةً، وبُدُوعًا: صار غاية في صفته خيرا كان أو شرا فهو بديع، وأبدع: أتى بالبديع، وأتى بالبِدعة، وبدعه: استخرجه وأحدثه". [16]

أما في معجم مقاييس اللغة " بَدَعَ: الباء والدال والعين أصلان: أحدهما ابتداء الشيء وصنعه لا عن مثال، والآخر الانقطاع والكلل" [17] وكلمة الإبداع من خلال معجم المصطلحات البلاغية لأحمد مطلوب: "من أبدع وهو أن يأتي الشاعر بالبديع، والبديع الشيء الذي يكون أولا، والإبداع سمة الشاعر المبتكر والكاتب المقتدر، وقد وضعه البلاغيون و النقاد في قمة الإنتاج وإن كان قليلا إذا قيس بغيره" [18]

3.3- المفهوم الاصطلاحي للبديعيات

يرى (محمود رزق سليم): " أن فن البديعيات صناعة فكرية أكثر منها صناعة أدبية، وهي ضرب من ضروب شعر حقائق العلوم والفنون، ذلك لأنه في جملة ما نظم فيه من القصائد يدور حول ذكر لونين من الحقائق، حقائق الأصباغ البديعية، وحقائق السيرة النبوية، ولا ننكر أن التزعة الدينية لها صلة بوجود هذا الفن". [19]

الملاحظ هو أن هذا الفن قد جمع بين ألوان البديع ومدح الرسول - صلى الله عليه و سلم - من خلال استذكار سيرته، يقول (محمد زغلول سلام): "وسار كثير من شعراء العصر على أثر البردة، فاحتذاها وعارضها جماعة من الشعراء، وتناول معانيها وأسلوبها جملة ممن اهتموا بالمديح من بعده، كالخيمي وصفي الدين الحلي وابن جابر الأندلسي الضرير وابن حجة الحموي، ولكن صفي الدين الحلي ومن تبعه انتهجوا نهجا جديدا في مدائحهم إذ طرزوها بالبديع وأسموها البديعيات ضمنوا كل بيت فيها نوعا من البديع، فجعلوها مديحا ومتنا في علم البديع معا." [20]

ويعرف (جودت الركابي) البديعيات ويحددها بدقة أكثر في قوله: "وقد ظهرت في هذه العصور قصائد من البحر البسيط في مدح الرسول -صلى الله عليه و سلم- تحوي كل فنون البديع عرفت بالبديعيات" [21]، أما (منير سلطان) فيعتبرها نوعا من الإلمام بعلم هام ألا وهو البديع في قوله: "البديعية قصيد تحتوي على كل الفنون التي أدرجت تحت علم البديع وهي في الوقت ذاته في المديح، وبخاصة مدح الرسول- صلى الله عليه و سلم-" [22]

غير أن جمال هذا الفن وفتنته لم تكن لتغري (أحمد إبراهيم موسى) إذ اعتبرها: "رسوما بالية وصورا خاوية لا حياة لها ولا روح فيها فلم يكن فيه من معنى الشعر إلا القافية والوزن"[23]

في حين يرى (زكي مبارك) في حديثه عن المدائح النبوية وما أثارته قصيدة البردة للبوصري: "وقد افتتن ابن جابر بقصيدة البردة وظهر أثرها في شعره، فقد شغل نفسه بمعارضة البردة، ولكن أي معارضة؟ لقد ابتكر فنا جديدا هو (البديعيات) وذلك أن تكون القصيدة في مدح الرسول ولكن كل بيت من أبياتها يشير إلى فن من فنون البديع". [24]

على أن أدق تعريف للبديعية فيما يبدو هو ما جاء في كتاب (البديع في علم البديع لمصطفى الصاوي الجويني) قوله: " البديعية قصيدة مديح غالبا ما تكون في مدح النبي- صلى الله عليه وسلم- وغالبا ما تكون على البحر البسيط، ومن قافية المتراكب وروي الميم المكسورة، ويقوم كل بيت منها شاهدا على الفن البديعي في لفظ البيت الذي يتضمن معناه".[25]

ومهما يكن من أمر فإن جل تعاريف هذا الفن تشير إلى نشأته الدينية، وعلاقته الوطيدة بفن المديح النبوي والمولديات.

4.3- بين البديعية وفن المديح

لم تظهر القصائد البديعية بشكلها الفني صدفة، بل تولدت من عوامل وواقع متميز بمعطيات شتى، فغدت لها الصدارة والبقاء، في زمن شهدت فيه الأمة من شرقها إلى غربها، تراجعا جعل الأمم الأخرى تتداعى عليها كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، فالتصدع الذي حدث في العالم الإسلامي بداية من القرن الرابع الهجري نتج عنه انعكاف روحي، وتقهقر نحو الداخل، فقد ضاقت سبل الحياة بالشاعر ولم يجد متنفسا إلا في لغته، ومن ثم كان مدح الرسول - صلى الله عليه و سلم – وكان فن البديع، والذي ظهر في وشاح بديعي عبر عن الاضطراب والقلق الذي كان يعيشه الشاعر..

لقد كانت البديعيات حاجة نفسية ونوعا من الحنين لأيام الازدهار، الأمن والاستقرار تحت راية الدين الإسلامي، تعبيرا عما عاشه الإنسان العربي في ظل معاول الهدم والغزو والخيبة إذ: "الدافع الأول للالتفات إلى مولد الرسول- صلى الله عليه و سلم- كان مبعثه هذه الخيبة الملفوفة في ثوب الهزيمة"[26]، إن البديعية وإن بدت بحلة جميلة من الألوان البديعية، فإنها تبقى جامدة، ما لم تمدها المدحة النبوية من عواطفها النبيلة، وأشواقها الروحية، وذكريات ماضيها الزاهر.

وكشأن كل الفنون فقد كان لهذا الفن إرهاصات وبدايات، قبل وصوله إلى صورته الناضجة، يقول (شوقي ضيف) في معرض حديثه عن البديع: " وإذا تقدمنا إلى القرن الثامن وجدنا (صفي الدين الحلي) ينظم قصيدة في مدح الرسول- صلى الله عليه و سلم- على غرار بردة البوصيري المشهورة ...وقد امتدت إلى مائة وخمس أربعين بيتا من البحر البسيط وضمن كل بيت فيها محسنا

من محسنات البديع، بحيث ضمت مائة وخمسين محسنا"[27]، وذلك بعد أن تحدث عن الشاعر (علي بن عثمان الأربلي المتوفى سنة 670هـ)، والذي نظم قصيدة مدح في بعض معاصريه من ستة وثلاثين بيتا في كل بيت منها نوع من أنواع البديع الشائعة في عصره، واضعا إزاء كل بيت اسم المحسن البديعي الذي تضمنه، والقصيدة تعد المحاولة الأولى في الاتجاه الذي أخذ بعد ذلك يشيع بين الشعراء بدخولهم في ميدان البديع، ينظمون فنونه في قصائد عرفت فيما بعد باسم البديعيات[28]، ومن نماذجها الجناس اللفظي في قوله:[29]

بَعْضُ هَذَا الدَّلالِ وَالإِدْلَالِ حَالُ بِالهُجْرِ وَالتَّجَنُّبِ حَالِي

ويذهب(محمود رزق سليم)، المذهب نفسه في اعتبار: " (صفي الدين الحلي) أول مخترع لفن البديعيات"[30]، في بديعيته الشهيرة (الكافية البديعية في المدائح النبوية).

ومهما يكن من أمر فالذي يهمنا في هذا الموضع هو الجانب المشرق من البديعية والذي عُطِّرت به حديقة الأدب العربي، دون أن ننكر الجهود المبذولة لأجل إرساء دعائم هذا الفن، فالبدايات هي الأساس، ثم تتعدد المحاولات وتتعمق التجارب وترتقي حتى تصل إلى قمة الإبداع.

4- مظاهر التشكيل في بديعيات العصر المملوكي

لما كان للبديعيات أثرها الخطير ومكانتها الأدبية الملحوظة في التراث الأدبي كان من البديهي أن تكون لها حظوة في هذا العصر وأن يتناولها القوم بالتعليق والشرح، فظهرت فكرة (شروح البديعيات)، كما ظهرت فكرة (التشطير،التربيع، التخميس، التسبيع)، وغير ذلك من أنواع التشطير...

لقد اتجه شعراء البديعيات في العصر المملوكي إلى صنع قصائد على غرار بردة البوصيري في مدح خاتم الأنبياء والمرسلين، والتي استأنس عند نظمها كما يقول (زكي مبارك) بالشاعر الصوفي عمر بن الفارض: " إن البوصيري استأنس عند نظمها بميمية (ابن الفارض) ودليل ذلك تشابه المطلعين، فإن مطلع قصيدة سلطان العاشقين (ابن الفارض):

هَلْ نَارُ لَيْلَى بَدَتْ لَيلًا بِذِي سَلَمِ أمْ بَارِقٌ لَاحَ فِي الزَّوْرَاءِ فالعَلَمِ

ومطلع قصيدة البوصيري:

أمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِـذِي سَلَمِ مَزَجت دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَة بِدَمِ

أمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلقاءِ كَاظِمَةٍ وَأوْمَضَ البَرْقُ فِي الظَّلْمَاءِ مِنْ إضَمِ[31]

فقد اشترك المطلعان في ذكر: (ذي سلم، إيماض البرق)، مع اشتراكهما في وزن وقافية واحدة، وهكذا يتوالى التناغم والتناسق بينهما، إذ يتابع البوصيري ابن الفارض في قوله:

يَا لَائمًا لامَنِي فِي حُبِّهِمْ سَفَهًا كُفَّ المَلَامَ فَلَوْ أحْبَبْتَ لمْ تَلُمِ [32]

وقول البوصيري:

يَا لَائِمِي فِي الهَوَى العُذْرِي مَعْذِرَةً مِنِّي إليْكَ وَلَوْ أنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ [33]

الملاحظ هو التشابه الواضح بين البيتين معنى ونظما، مما يؤكد أن هذا التناغم الوجداني منبعه واحد: "فتلك الفتن الداخلية المؤلمة فضلا عن الغزو الخارجي الشرس، أذكت في نفوس كثير من المسلمين مشاعر احتقار الدنيا واليأس منها والزهد فيها والاتجاه إلى الله، كما ألهبت في قلوبهم الشعور بالحزن والميل عن الناس وهذه كلها أمور لا تبتعد كثيرا عن التصوف" [34]

ومن البديعيات الشهيرة في هذه الفترة (الحلة السيرا في مدح خير الورى، لابن جابر الأندلسي الضرير المتوفى سنة 780هـ)، وهي بديعية تنازع (الكافية البديعية في المدائح النبوية، لصفي الدين الحلي)، بلغ عدد أبياتها مائة وستة وعشرين بيتا، لا تختلف عن بديعيات العصر شكلا ومضمونا، ومطلعها:[35]

بِطَيْبَةَ انْزِلْ وَيَمِّمْ سَيِّدَ الأُمَمِ وَانْثُرْ لَهُ اَلْمَدْحَ وَانْشُرْ أطْيَبَ الكَلِمِ

وقد تفردت بديعية (ابن جابر) عن باقي البديعيات في شيئين جوهريين : فصله بين ألوان البديع اللفظية والمعنوية، واقتصاره على أبواب البديع التي ذكرها القزويني فقط، وتنحية المسائل التي عرفت عنده، وعند السكاكي باسم (علم البيان) عن بديعيته.[36]

وقد يذهب صاحب البديعية بعيدا في توظيف البديع، فيذكر في كل بيت منها لفظة تدل على اسم النوع البديعي، كما فعل (عز الدين علي بن الحسين الموصلي المتوفى سنة 789هـ)، صاحب البديعية التي عارض فيها بديعية صفي الدين الحلي، ومطلعها:[37]

براعةٌ تستهلُّ الدَّمْعَ فِي العَلَمِ عِبَارَةٌ عَن نِدَاءِ اُلْمُفرَدِ العَلَمِ

وهي قصيدة نبوية في مائة وخمسة وأربعين بيتا، التزم فيها الموصلي بذكر اسم المحسن البديعي الذي استخدمه بطريق التورية أو الاستخدام، كقوله في مطلع البديعية (براعةٌ تستهلُّ) إشارة إلى (براعة الاستهلال) أحد المحسنات البديعية.

وكذلك فعلت (عائشة الباعونية، بنت يوسف بن أحمد بن نصر الباعوني المتوفاة سنة 922هـ) في بديعيتها التي بلغت مائة وثلاثين بيتا، والتي أطلقت عليها اسم (الفتح المبين في مدح الأمين)، وقد شرحها (ابن حجة الحموي) على هامش خزانته، ومطلعها:[38]

فِي حُسنِ مَطلَعِ أُقْمَارِي بِذِي سَلَمِ أصْبَحْتُ فِي زُمْرَةِ العُشاقِ كَالعَلَمِ

ولا ننسى أن نشير إلى بديعية (ابن الخلوف" القسنطيني المتوفى سنة 899هـ)، المسماة: (مواهب البديع في علم البديع)، وفي مطلعها علاوة على براعة الاستهلال، سجع مطرف مع التصريع، يقول: [39]

أَمِنْ هَوَى مَنْ ثَوَى بِالبَانِ والعَلَمِ هَلَّتْ بَرَاعَةُ مُزْنِ الدَّمْعِ كَالعَنَمِ

والطي والنشر[40]، في قوله:[41]

ولو **طوى** شعْرٌ قد زَكَا اتَّشَحُوا لانشق الجوَّ عرفَ طَيِّ **نَشْرِهِم**

والجمع والتفريق والتقسيم والمشاكلة [42] ، في قوله: [43]

وَجَمْعُ مَا قُلتَ فِيهِ اللهُ **قَسَّمَهُ** طِفْلا، وَكَهْلًا وَشَيْخًا شَائِبَ الأُمِمِ

واجمع بَتفْريق تقْسيمي مدائِحَهُ فَالنَّظْم لِلذَّاتِ، والمنْثـورُ للشِّيمِ

شاكِل بِبِرٍ لِبِرٍ، أوْ بِصِيـغة منْ أغْنَى بسبْقتِهِ عَنْ غَمْسِ مَائِهِـــمِ

ويجمع الشاعر في هذا اللون البلاغي ثمرة معارفه العلمية والمعرفية في شكل شائق، من خلال الذكر الحسن للممدوح، ولصفاته ولقبه وكنيته، واسم من أمكن من أبيه وجده وقبيلته، من خلال محسن التفريع [44] ، يقول: [45]

مُحَمَدٌ أَحْمدٌ أصْلٌ **تَفَرَّعَ** عَـنْ عَمْرُو بن عَبْد مَناف عن معدهِم

مَا النَّجم إن شب نبتا، أَو نما شرًفا عنْدي بأحسن من **تفْريع** أصلهِم

والبديعية كغيرها من قصائد البديع في مدح النبي -صلى الله عليه وسلم- وتتكون من مائتين وستة وعشرين بيتا، تبتدئ بمقدمة غزلية مفعمة بالوجد الحارق والأشواق الروحية لأماكن كانت تُظل المحبوب البعيد القريب، وأي محبوب إنه شفيع الأمة ونبيها محمد – صلى الله عليه وسلم- ثم يخلص الشاعر إلى هدفه الأسمى وهو مدح أنبل الخلق– صلى الله عليه وسلم- مشيدا بصفاته وشمائله، في شكل زخرفي جميل، وكانت الخاتمة دعاء وتضرعا لنيل شفاعته - صلى الله عليه وسلم-

والبديعية في ظاهرها تقليد لبناء القصيدة العربية ومنهجيتها، والحقيقة خلاف ذلك: فالطلل رمز لحقائق جوهرية في حياة الشاعر، لآهات وذكريات، تصل بين الحاضر والماضي، والغزل مناجاة، استطاع الشاعر من خلاله المزج بين الحب والألم والبديع.

ومن مظاهر التشكيل الفني في النص الشعري المملوكي: التفنن والتلاعب بأوزان الشعر وقوافيه: فقد ظهرت الرباعيات والموشحات والمسمطات[46] من ذلك: مخمس (لأبي عبد الله بن الجنان) أحد شعراء القرن السابع الهجري: [47]

اللهُ زادَ مُحَمَدا تَكريمَا

وَحَبَاهُ فَضْلاً مِنْ لَدُنْهُ عَظِيمَا

واخْتَصَّهُ فِي المُرْسَلِينَ كَرِيمَا

ذَا رَأفةٍ بِالمُؤْمنينَ رَحِيمَا صَلُّوا عليهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

ومنها مخمس (لتميم بن الخليفة) مدح به المعز الفاطمي الخليفة العزيز بالله، يقول: [48]

دَمُ العُشَّاقِ مَطْلُولُ وَدَيْنُ الصَّبِّ مَمْطُولُ

وَسَيْفُ اللَّحْظِ مَسْلُولُ وَمُبْدِي الحُبِّ مَعْذُولُ

وَإنْ لمْ يُصْغِ لِلْألمِ

وهكذا تتوالى الأدوار على هذا الشكل، فالشطور الأربعة الأولى تتحد قافيتها، وقافية الشطر الخامس ميمية دائما، وهي عمود المسمط وقطبه الذي يدور عليه، وقد تدور المسمطات على شطر رابع، أو سادس أو سابع، وتسمى مربعات وسداسيات وسباعيات.[49] وأولع شعراء هذه الفترة بتسميط القصائد المشهورة كبردة البوصيري وهمزيته في مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم- [50]

وشاعت الرباعيات في هذا العصر، وكثر استخدامها عند العرب والفرس، مع تسميتها باسم (الدوبيت) أي: بيتين، واستحدثوا لها وزنين هما: " فَعْلُنْ فَعْلُنْ مُسْتفعِلُنْ مُسْتَفعِلُنْ"، " فَعْلُنْ مُتَفَاعِلُنْ فَعُولُنْ فَعْلُنْ"، والرباعية أربعة شطور من الشعر تؤلف بيتين، تتحد شطورهما الأولى والثانية والرابعة في القافية، أما الشطر الثالث فقد يتحد مع تلك الشطور في قافيته وقد لا يتحد [51]. ومنها قول (ابن أبي الإصبع ت 654هـ):[52]

قَبَّلت ثَنَايَا كجُمـانِ العِقدِ مِنهُ وَعَدَلتُ عَنْ نُضَارِ الخدِّ
نَادَى مَاذَا؟ فقلتُ: طَبْعٌ عَرَبِي يَشتَاقُ أقَاحَ الرَّوْضِ دُونَ الورْدِ

ومن ذلك رباعية لسلطان العاشقين الشاعر الصوفي(عمر بن الفارض)، تفوح بوجد مبرح يقول:[53]

رُوحِي لَكَ يَا زَائِرُ فِي اللَيْلِ فِـدَا يَا مُؤنِسَ وَحْشَتِي إذَا اللَّيْلُ هَـدَا
إنْ كَانَ فِرَاقُنَا مَعَ الصُّبْحِ بَدَا لَا أسْفَرَ بَعْدَ ذاكَ صُبْحٌ أبَدَا

وقد تطور عن المخمسات والمسمطات، شكل جديد من أشكال المنظومات الشعرية الدورية، هو الموشحات[54]، من ذلك موشحة (لشهاب الدين العزازي المتوفى سنة 710هـ)، موزعة بين النشوة بالخمر وبالحب وبجمال الطبيعة استهلها بقوله: [55]

يَا ليلةَ الوَصْلِ وَكَأسَ العُقارْ دُونَ اسْتِتَارْ عَلَّمْتُمَانِي كيْفَ خَلْعُ العِذَارْ[56]
اغْتنِمِ اللَّذاتِ قبْلَ الذَّهَابْ
وَجُرَّ أذيَالَ الصِّبَا وَالشَّبَابْ
وَاشْرَبْ فَقَدْ طَابَتْ كُئوسُ الشَّرَابْ

ويختتمها بقوله:

يَا ليْلَة أنعمَ فيهَا وَزَارْ شَمْسُ النَّهَارْ حُيِّيتِ مِنْ بَيْنِ اللَّيَالِي القِصَارْ

هكذا تتراءى لنا من خلال هذه النماذج بعض مظاهر التشكيل الفني في النص الشعري المملوكي عامة وفن البديعيات على وجه الخصوص، والذي يعد ابتكارا وعلامة خاصة بهذا العصر الذي اعتبر- ظلما- عصر ضعف وانحطاط.

5- خاتمـة

- لم يتوقف موكب الشعر في العصر المملوكي ولم ينقطع، بل ظل يحتفظ بمكانته، وظل الناس يكرمون الشعراء ويقدرونهم، وراح الشعراء يتغنون ابتهاجا بانتصارات المماليك على التتار والصليبيين.

- كانت البديعيات حاجة نفسية، نوعا من الحنين لأيام الازدهار، الأمن والاستقرار تحت راية الدين الإسلامي، تعبيرا عما عاشه الإنسان العربي في ظل معاول الهدم والغزو والخيبة.

- ارتبط فن البديعيات بقصيدة المديح والقصيدة المولدية ، التي كانت استجابة لروح العصر.

- تعتبر قصيدة البردة للبوصيري مصدر إلهام شعراء البديعيات.

- البديعية ابتكار مملوكي يظهر براعة الشاعر في التفنن بأوزان الشعر، والتحكم في علوم البلاغة العربية.

- عبر الوشاح البديعي لفن البديعيات عن الاضطراب والقلق الذي كان يعيشه الشاعر..

- تفنن شعراء البديعيات في توظيف البديع، إلى الحد الذي راح فيه الشاعر يذكر في كل بيت من البديعية المحسن البديعي واللفظة التي تدل عليه تلميحا أوتصريحا..

- من مظاهر عناية الأدباء والشعراء بهذا الفن استحداث أوزان جديدة، وظهور فكرة (التشطير،التربيع، التخميس، التسبيع)، أبرز ملامح التشكيل الفني في النص الشعري المملوكي.

6- الهوامش

[1]- محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1950، ص323.

[2]- عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام في عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك، دار الفكر العربي المعاصر لبنان، ودار الفكر سوريا، ط1، 1989، ص122.

[3]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، دار المعارف، القاهرة، ط2، ص171.

[4]- شرف الدين النصاري، ديوان الصاحب شرف الدين النصاري، تحقيق: عمر موسى باشا، دار الفكر، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1968، ص269 .

[5]- محمود رزق سليم، الأدب العربي وتاريخه، في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، مطابع دار الكتاب العربي، مصر، 1957، ص75.

[6]- نفسه، ص76.

[7]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، ص196.

[8]- ابن نباتة المصري، ديوان ابن نباتة، شركة علاء الدين للطباعة والتجليد، بيروت، ص152.

[9]- العماد الأصبهاني، الخريدة، قسم شعراء مصر، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج1، ص161.

[10]- نفسه، ص231.

[11]- ابن نباتة المصري، ديوان ابن نباتة، ص423.
[12]- محمود رزق سليم، الأدب العربي وتاريخه، في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، ص 80
[13]- نفسه، ص81.
[14]- صفي الدين الحلي، ديوان صفي الدين الحلي، دار صادر، بيروت، (د ط، د ت)، ص675.
[15]- سلعا: منطقة قرب المدينة.
[16]- إبراهيم مصطفى، حامد عبد القادر، أحمد حسن الزيات، محمد علي النجار، المعجم الوسط، مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، ج1، 1989، ص43.
[17]- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991، ص209.
[18]- أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، بيروت، لبنان، 2000، ص 23.
[19]- محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه الأدبي والعلمي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1965، ص177.
[20]- محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ج1، د ط، د ت، ص328.
[21]- جودت الركابي، الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1982، ص132.
[22]- منير سلطان، البديع تأصيل وتجديد، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، د ط، 1986، ص22.
[23]- أحمد إبراهيم موسى، الصبغ البديعي في اللغة العربة، دار الكتابب العربي، القاهرة، د ط، مصر، 1969، ص374.
[24]- زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، صيدا، بيروت، د ط، 1935، ص205.
[25]- مصطفى الصاوي الجويني، البديع في علم البديع ليحي بن معطي، تحقيق: محمد مصطفى أبو شوارب، دار الوفاء، القاهرة، مصر، د ط، د ت، ص40.
[26]-عبد الله حمادي، دراسات في الأدب العربي القديم، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1986، ص213.
[27]- شوقي ضيف، البلاغة العربية تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر، ط8، (د ت)، ص360.
[28]- عبد العزيز عتيق، علم البديع ، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ص53
[29]- عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص53
[30]- محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه الأدبي، ج4، ط1، 1965 ص180.
[31]- زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، ص183-184.
[32]- المرجع نفسه، ص183-184.
[33]- المرجع نفسه، ص185.
[34]- رمضان صادق، شعر عمر بن الفارض دراسة أسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، (د ط)، 1998، ص15.
[35]- ابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان،ج1، 1987، ص8.
[36]- أحمد إبراهيم موسى، الصبغ البديعي في اللغة العربية، ص385.
[37]- علي أبو زيد، البديعيات في الأدب العربي (نشأتها، تطورها، أثرها)، علم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ص78.

[38]- عبد العزيز عتيق، علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ص66..

[39]- ابن الخلوف،" مواهب البديع في علم البديع"، تحقيق حورية رواق، قسنطينة، 2003، ص2.

[40]- الطي والنشر: " هو ذكر متعدد على التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين، ثقة بأن السامع يرده إليه، لعلمه بذلك بالقرائن اللفظية أوالمعنوية". ينظر: عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص175.

[41]- ابن الخلوف،" مواهب البديع في علم البديع"، ص7.

[42]- المشاكلة هي: " ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، تحقيقا أو تقديرا." ينظر: الصعيدي،عبد المتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، ط17، 2005، ص315.

[43]- ابن الخلوف،" مواهب البديع في علم البديع"، ص20.

[44]- التفريع هو من الاستطراد :" وذلك أن يقصد الشاعر وصفا ما، ثم يفرع منه وصفا آخر يزيد الموصوف توكيدا" ينظر: ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق: النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط1، 2000، ص636.

[45]- ابن الخلوف،" مواهب البديع في علم البديع"، ص22.

[46]- المسمط مشتق من السِمْط وهو قلادة تلتقي فيها عدة سلوك عند جوهرة كبيرة ، وكل دور في المسمط كأنه سلك يلتقي مع الأدوار أو الأسلاك الأخرى في قافية الشطر الأخير من الدور ، وكأنها الجوهرة التي تتجمع عندها الأسلاك، وتتحد الشطور السابقة للشطر الأخير في قافيتها ، وتتغير من دور إلى دور"، ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والإمارات، ص174.

[47]. أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج7، (د ط)، 1988، ص432.

[48]-تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، ديوان تميم بن المعز، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1957، ص368.

[49]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، ص173.

[50]- نفسه، ص173.

[51]- نفسه، ص174.

[52]- نفسه، ص175.

[53]- عمر بن الفارض، ديوان عمر بن الفارض، دار صادر، بيروت، (د ط، د ت)، ص192.

[54]- "والموشحة تتكون من أدوار أو أغصان، ومن شطور تسمى أقفال، ومن خرجة تطلق على القفل الأخير، وتتحد شطور الأقفال في قوافيها المتقابلة في الموشح كله، بينما تختلف قوافي الشطور في الأغصان من غصن إلى غصن مثلها في ذلك مثل أدوار المسمطات". ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، ص176.

[55]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، ص180.

[56]- خلع العذار: كناية عن الانهماك في المجون.